ت . س . إليوت

١

ولد توماس ستيرنز إليوت ، شاعر الإنجليزية الأول فى فترة ما بين الحربين ، عام ١٨٨٨ لأسرة أمريكية تسكن سان لويس من أعمال الولايات المتحدة . وليس فى حياته ما يستحق الذكر إلا أنه تلقى علومه بجامعة هارڤارد ثم بالسوربون ثم بأكسفورد ، وأنه اشتغل بالتدريس فى جامعة كامبريدج ، ثم عيّن أستاذاً للشعر بجامعة هارڤارد . وقد أمطرت عليه الجامعات البريطانية عدداً كبيراً من إجازات الدكتوراه الفخرية تكريماً له واعترافاً بفضله على الأدب الإنجليزى .

جمع إليوت قصائده المتفرقة الأولى عام ١٩١٧ ، وكان أهم ما فى هذه المجموعة « أغنية العاشق ج . ألفريد پروفروك » ، وهى القصيدة التى لفتت إليه الأنظار . وهذه القصيدة تصوير للمفكر فى القرن العشرين كيف يذبل الربيع فى قلبه قبل الأوان . فمستر پروفروك ، وهو لا يختلف فى شىء عن مستر إليوت ، كهل يتقدم لخطبة فتاة عصرية تغشى الصالونات وتجيد الحديث السطحى . ولكنه يتردد فى ذلك كثيراً ، فهو يعلم أن الصلة بينهما غير واضحة ، وهو يعلم أن ينابيع الحياة قد جفّت فيه وأن رياشه الزاهية قد سقطت عنه ، وهو شديد الخجل من قصوره فى ميدان الغرام .

« والنسوة فى الغرفة ذاهبات جائيات يتحدثن عن ميكلانجلو » .

« ولسوف أجد فى وقتى متسعاً لأن أتساءل : كيف تجرؤ أيها الرجل ! بل كيف تجرؤ أيها الرجل ! أجل ، سأجد فى وقتى متسعاً لأن أهرب من الموقف وأن أهبط السلم ، وفى وسط رأسى بقعة صلعاء . [وحين يرين البقعة الصلعاء سوف يقلن : يا لشعره ، كيف يتساقط !] وأنا فى حُلّة الصباح ، بنيقتى عالية مستقرة ترتفع إلى ذقنى ، وربطة رقبتى من النوع الممتاز ، ولكنها مثبّتة بدبوس

بسيط السوف يقلن : نعم ، ولكن ذراعيه عجفاوان وساقيه ضامرتان] فكيف أجرؤ إذاً على إزعاج الكون ؟ فلأدخل لنفسى دقيقة لأتدبر ، ففى الدقيقة متسع للعزم وللعدول ، وللعدول عن العدول » .

وهو فى كل ذلك يخشى أن يرد خائباً . ويروعه فى نفسه هذا الإسراف فى التردد ، فيذكر الأمير هاملت سيد المترددين ويستدرك قائلا :

« ما أنا بالأمير هاملت وما أرادتنى المقادير أن أكون . إنما أنا نبيل فى ركاب الامير . وأنا نكرة كل نفعى أن ينتفخ بى جمع على مسرح أو أن أمهد لفصل من فصول الرواية أو أن أنصح الأمير ، فأنا أداة لا ريب طيّعة . وأناجم الاحتشاد يسعدنى أن أخدم مولاى ، لبق حريص مسرف فى الدقة أكثر من الكلام الطنان ، ولكن بعض كلامى يملّ السامعين وبعضه لا يخلو حقّا من الحماقة .

« لقد أدركتنى الشيخوخه ، لقد أدركتنى الشيخوخة . ولسوف يضمر فخذاى حتى تكثر الأطواء فى حجر سروالى » .

ولقد تروعك فى هذا الشعر غرابته ؛ فهو لا يتفق مع النسق المألوف فى القريض التقليدى الذى نعرفه . ولكن هذه الطريقة الجديدة فى الأداء هى الخاصة التى تميز الشعر الإنجليزى فى فترة ما بين الحربين . فاليوم كل شىء يدخل فى تجربة ، ولا يشذ عن ذلك أساليب التعبير الفنى . والشعر الإنجليزى فى فترة ما بين الحربين شعر غامض ، ما فى ذلك شك ، ولقد يصل به الغموض إلى درجة الامتناع الكامل على الفهم ، وذلك راجع إلى جملة أسباب :

فالشعر التقليدى المعروف حتى ظهور إليوت يقوم على التتابع المنطقى فى أى جزء من أجزاء السياق وفى السياق كله ، وما خرج على ذلك يعدّ هذيان محموم أو ترّهات مجنون . أما الشعر الإنجليزى المعاصر فيقوم على التتابع العاطفى وتتابع الذكريات قبل كل شىء . فاليوت يقول فى « الأرض الخراب » :

« أبريل أقسى الشهور ، ففيه يزهر الليلج فى الأرض القواء ، وتمتزج فينا الشهوة بالذكرى وتنتعش الجذور اليابسة بأمطار الربيع . أما الشتاء فقد أدفأنا حين كسا الأرض بثلوج النسيان وأطعم الحشرات بالجذور اليابسة . والصيف أثار فينا العجب عند ما عبرنا بحيرة شتارنبرج وانهالت علينا شآبيب الغيث . وقفنا بين الأعمدة وخرجنا إلى الهوفجارتن ، وفى هذه الحديقه شربنا أقداح

القهوة وتجاذبنا أطراف الحديث ساعة أو بعض ساعه تحت ضوء الشمس . كلا ! لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا . وحين كنا أطفالا نقيم فى قصر ابن عمى الأرشيدوق خرج بى الأرشيدوق لينزلق على الجليد فاضطربت نفسى . قال : يا مارى ! أمسكينى بقوة يا مارى ! ثم بدأنا ننزلق . إنما نحسن بالحرية بين الجبال . وأنا أقرأ عامة الليل وفى الشتاء أنتقل إلى الجنوب . . . الخ »

وهذه الطريقة فى الإنشاء لا تختلف فى شىء عما يسمونه فى التحليل النفسى تداعى المعانى اللامترابط . فالمريض يسترسل فى سرد أفكاره أمام الطبيب المحلل بلا قيد ولا نظام ، وكلما ألقى إليه الطبيب المحلل بكلمة ذكر أول فكرة تجول بباله . ومن هذه الذكريات المفككة يفتضح عقله الباطن وتخرج إلى النور مكنوناته ومكبوتاته . وظهور الأساليب القائمة على التتابع العاطفى وعلى التداعى اللامترابط نتيجة من نتائج الثورة على العقل التى عمت أوربا فى القرن العشرين بعد أن ثبت للأوربيين إفلاس العلم وعجزه عن تحقيق التقدم المنشود للإنسانية فى القرن التاسع عشر تحت حكم الرأسمالية التى وجهت العلم لخدمة أغراضها المادية لا لتنظيم المجتمع .

ولعل فن السينما قد ترك فى الشعر الإنجليزى المعاصر بعد الأثر كما يقول الناقد الشاعر سسيل داى لويس . فالطريقة المرغية فى الإخراج السينمائى هى الانتقال المفاجىء السريع من منظر إلى آخر دون اعتبار لصلات الزمان أو المكان أو التسلسل المنطقى فى عملية الانتقال هذه ، والاعتماد التام على وحدة الفلم فى مجموعه وعلى التتابع العاطفى وحده فى أجزاء الفلم المختلفة كل على انفراد .

ومما زاد فى غموض الشعر الانجليزى المعاصر خضوع أصحابه للمدرسة الرمزية فى فرنسا وخاصة للافورج ورمبو وڤاليرى . وشعر إليوت بالذات أوضح ثمرة لتفاعل هذه التأثيرات الواردة من القارة الأوربية فى عقلية الشاعر ، ونتيجة ذلك كله أدب لا سبيل إلى فهمه الكامل أو تذوقه الكامل إلا إذا كان القارىء ملماً بجميع اللغات الرئيسية وآدابها إلماما كافياً .

وفى عمود الشعر الانجليزى خاصة ظلت ثابتة فيه حتى ظهور إليوت ، وتلك الخاصة هى استيحاء الميثولوچيا اليونانية والرومانية وتأثر خطى القدماء فى فنون الإنشاء . فالشعراء الإنجليز من ويات فى أوائل القرن السادس عشر إلى تنيسون فى أواخر القرن التاسع عشر قد استمدوا مادة أدبهم من أساطير

اليونان والرومان وفنهم وتاريخهم ، واستخدموا آلهتهم وأبطالهم فى التعبير الرمزى وفى المحسنات البديعية وفى الأخيلة بوجه عام . وقد كان تذوق الشعر الإنجليزى فى القرون الأربعة الماضية متوقفاً على إلمام القارئ بالتراثين اليونانى والرومانى . ولكن هذا الإلمام لم يعد كافياً لتذوق الشعر الإنجليزى المعاصر ؛ لأن جذور هذا الشعر لا تمتد إلى حضارة اليونان والرومان فحسب بل تمتد إلى أصول الحضارة الإنسانية بوجه عام . وإليوت مؤسس هذه المدرسة الجديدة يكثر من الاستعانة بالتراث المسيحى خاصة وأثر شاعر المسيحية الأول دانتى فيه صريح لا يقبل الجدال ، بل إنه لا سبيل إلى فهم إليوت أصلا إلا بدراسة ملحمة دانتى المشهورة « الكوميديا الإلهية » . كذلك يستخدم إليوت ما تعلّمه عند السير جيمس فريزر صاحب « الغصن الذهبى » من ميثولوجياً مقارنة بمهارة فائقة . ولقد تجد فى قصيدة واحدة من « الأرض الخراب » إشارات وتضمينات من سپنسر وشكسپير وداى وجولد سميث وڤرلين ودانتى وأوڤيد وبوذا وسافو ، فهى ملتقى ثقافات شرقية وغربية قديمة وحديثة وثنية ومسيحية . وهكذا الحال فى بقية أعماله . وما هذه الظاهرة الجديدة فى الشعر الاوربى إلا نتيجة النشاط العظيم فى تجارة الفكر بين الشعوب المختلفة واصطباغ الثقافة بالصبغة العالمية فى جيلنا هذا . فالتشابك المطرد فى اقتصاديات العالم الذى نجم عن الانقلاب الصناعى لم يعقّد الحياة الإنسانية فحسب بل استوجب ظهور الحروب العالمية والمذاهب العالمية والنظم العالمية والثقافة العالمية ، و على الجملة أرغم شعوب الأرض على الخروج من حالتها الإقليمية والاتجاه نحو الوحدة والتفاهم فى كل باب من أبواب النشاط المادى والفكرى .

وإليوت إلى كل ذلك يحشو شعره باختبارات شخصية لا يشاركه فيها إنسان ، فمن حوار عارض سمعه فى مقهى « لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا » إلى حادث جرى له « وخرج بى الأرشيدوق لينزلق على الجليد فاضطربت نفسى » . وهو لا يمهّد لهذه الاختبارات الشخصية بل يدمجها فى السياق إدماجا دون رابط على طريقة التداعى اللامترابط . وهذه الخاصة فى الشعر الحديث نتيجة انسحاب الفنان الفردى المشفق على فرديته منهزما أمام القوى الحضارية الجديدة التى تسحق الفردية سحقاً ، وإصراره على إعلان اختباره

الشخصى الذى يعتز به كلما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ فهى بمثابة احتجاج على روح المجموع التى انتشرت بمجىء الانقلاب الصناعى .

والحضارة الآلية التى تحيط بنا قد لوّنت خيال إليوت ونفذت إلى وجدانه . لذلك نراه يكثر من استخدام التشبيهات الآلية ويحدث ثورة فى لغة الشعر لعزوفه عن التشبيهات المستمدة من الطبيعة . فهو يقول فى « بروفروك » : « هيا بنا إذاً نخرج معاً حين يستلقى المساء على السماء استلقاء المريض المخدّر على المائدة » . وهو يقول فى « موعظة النار » : « حين تخفق الآلة البشرية كأنها سيارة مأجورة تخفق فى انتظار راكبها » وهكذا دواليك .

فلا غرو إذاً أن كان شعر إليوت مثالا للجدّة والغموض فى وقت واحد . وقد جذبت طريقته هذه شعراء الشباب فى انجترا ، أودن وسپندر وما كنيس وسسيل داى لويس وغيرهم وغيرهم ، فإذا نحن أمام مدرسة عظيمة لكل من أبنائها طابعه الخاص ، ولكنهم جميعاً يبنون على أساس إليوت كثيراً أو قليلا . فاليوت بهذا المعنى نقطة تحوّل فى تاريخ الشعر الإنجليزى ، وهو فى هذا لا يقل شأنا عن أصحاب التجارب المعروفة مارلو وملتون ودرايدن وشلى وهويتمان وبقية الخالدين .

٢

وإليوت صاحب « أغنية بروفوك » ليس تماما الشاعر الفلسفى الذى نعرفه اليوم . فقد تطور فنه تطوراً محسوساً مع الأيام ، وهو يتقدم باستمرار من الخاص إلى العام ، ومن الاختبار المادى إلى الاختبار المجرد ، ومن العاطفة إلى الفكر . ولكنه رغم هذا التطور قد احتفظ ببعض الأفكار الجوهرية الثابتة فى جميع مراحل عمره . فاليوت القائل سنة ١٩١٤ : « لقد غرفت معين حياتى بملاعق القهوة » ، هو القائل سنة ١٩٢٥ : « بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل . ما أطول الحياة » ، وهو القائل سنة ١٩٤٠ : « قلت لروحى اهدئى ياروح ، فالأمل الذى تأملين أمل فى الباطل . قلت لروحى : اهدئى ياروح ، فالحب الذى تحملين حب للباطل . لم يبق لك إلا الإيمان ياروحى ، ولكن الأمل والحب والإيمان كلها فى الانتظار » .

فهو شاعر متشائم حزين ، يضيق بالحياة ويجد أنها عبء يبهظ روح الإنسان وهو يحن صابراً إلى يوم خلاصه ، يوم يتحرر سره من بيت الصلصال . غير أن تشاؤمه الأول كان يمتزج بشيء من الميل إلى الدعابة والسخرية ، وحزنه في صدر حيانه كان خالياً من المرارة ، ولقد كان يسخر من نفسه قبل أن يسخر من الحياة .

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى مر إليوت في أزمة روحية كبيرة وخرج منها شاعراً دينيًّا كامل الإعداد . وزال مرحه القليل وفقد الثقة بالحياة والأحياء وحل به يأس مميت . وفي عام ١٩٢٢ نشر « الأرض الخراب » وهي مجموعة من القصائد صوّر فيها ضعف الحياة الإنسانية وعقم الحضارة . ولعلها أهم ما أنتج إليوت في الفترة الواقعة بين الحربين . وفي عام ١٩٢٥ نشر « الرجال الجوف » ، وهي أبلغ رثاء للعالم نعرفه حتى الآن . وفيها وصف إليوت القحل والمحل وجلس ينعق على أطلال الدنيا ، وهي أشبه بقداس كئيب في كاتدرائية فخمة مخرّبة .

« نحن الرجال الجوف بالقش حُشينا ، وبالقش حشيت رؤوسنا ، يتوكأ بعضنا على البعض الآخر . فوا أسفاه كلما همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت الريح على الحشائش اليابسة أو دبيب أقدام الجرذان وهي تمشي على الزجاج المكسور في مخابئ الخمر ببيوتنا .

« أما أولئك الذين انتقلوا إلى مملكة الموت الأخرى بلا تردد فلا يذكروننا . فإن ذكرونا لم يذكروا أننا أرواح هائجة ضائعة بل ذكروا أننا الرجال الجوف .

« نحن أشكال بلا قوالب . نحن ظلال بلا ألوان . نحن قوى مشلولة . نحن إشارات بلا حركة .

« تلك العيون التي لا أجسر على مواجهتها في أحلامي لا تظهر في مملكة الموت ، مملكة الأحلام . فالعيون هنالك شعاع من الشمس يشرق على عمود محطم ، وهنالك شجرة تترجح وأصوات تسمع في غناء الريح بعيدة رهيبة ، أشد بعداً ورهبة من نجم يخبو .

« لست أريد أن أقترب من ذلك الشعاع ولا من تلك الأصوات في مملكة الموت ، مملكة الأحلام . دعني لذلك أستخفي منها في جلد فأر أو في رياش غراب حقيقي أو في زي غراب المقات بين الحقول أتمايل مع الريح ، فلست أريد أن أقترب .

« كلا ! لست أريد أن أقترب من ذلك الملتقى الأخير فى مملكة الشفق .

« هذه هى الأرض الموات ، هذه أرض الصبّار . هنا أقنا الأصنام ، وهنا يرفع الموتى أكفهم ضارعين إلى الأصنام على مشهد من نجم خابٍ يتلألأ قبل أن يتوارى .

« أهكذا الحال فى مملكة الموت الأخرى ؟ أنستيقظ هكذا وحدنا ونحن ننتفض بالأشواق ، فإذا شفاهنا التى خلقت للقبلات تتمتم بالصلوات للحجر المحطم .

« العيون ليست هنا . فما هنا عيون فى هذا الوادى الأجوف وادى النجوم الخابية ، ما هنا عيون فى هذه المملكة الضائعة ذات الفك المكسور .

« هذا مكان اللقاء الأخير ، وفيه نجتمع ونتحسس طريقنا معاً عند شط النهر العارم ونتجنب الكلام وقد عميت أبصارنا فلا نجد ما نهتدى به إلا أن تظهر العيون من جديد وتثبت أمامنا كالنجم الخالد ، كالوردة كثيرة الأوراق فى مملكة الشفق ، مملكة الموت ، وهى أمل الرجال الجوف دون سواهم .

« ها نحن نرقص حول شجرة الصبّار ، شجرة الصبار ، شجرة الصبار . ها نحن أولاء نرقص حول شجرة الصبار فى الساعة الخامسة صباحا .

« بين الفكرة والحقيقة يسقط الظل . بين الحركة والفعل يسقط الظل . لك الملك يا رب .

« بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل . ما أطول الحياة .

« بين الاشتهاء ولحظة التحقق يسقط الظل . بين القدرة والوجود يسقط الظل ، بين الأصل والفرع يسقط الظل . لك الملك يا رب .

« لك الملك . . . ما أطول . . . لك الملك يا . . .

« هكذا تنتهى الحياة . هكذا تنتهى الحياة . هكذا تنتهى الحياة . تنتهى بزمجرة مكتومة لا بقرع الطبول » .

ولقد لوحظ أن الحروب الكبرى تنتهى عادة بطائفة من الظواهر بعضها طبيعى وبعضها اجتماعى وبعضها نفسى ، فتكثر الأوبئة ويزداد عدد المواليد من الذكور وتنتشر المذاهب الجديدة والأزياء الفاضحة والاستهتار الجنسى ونزعات التصوف والجمعيات الدينية ومخاطبة الأرواح . ولا غرابة فى ذلك فالمحن تكسر روح الانسان ، وإليوت شاعر عامر بإنسانيته .

وقصائد « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » نماذج جيدة لهذا الحزن العميم . وشعر إليوت فى فترة ما بين الحربين شعر الكارثة ، وفنه منصرف إلى استنباط الرموز الصالحة للتعبير عن جدب الحياة الإنسانية . وهذا الرمز فى « الرجال الجوف » لون من التصوف المسيحى لأن فيها تصويراً لرؤى تجلت أمام الشاعر فى عالم المجهول . ولكنه تصوف محدود لأن الرؤيا غير واضحة ، وهو تصوف مستعار من تأولات الغير وليس تصوفاً صادقاً مبنيًّا على الاختبار المباشر . وهو ثمرة اجتهاد المفكر فى اختراق حجب الغيب أكثر منه إشراق الصوفى فى ساعة الوجد . بل لولا تلك العيون التى يراها الشاعر فى مملكة الموت تشرق كشعاع الشمس على العمود المحطم لما كان هناك تصوف ولا رؤيا . ونحن نحار فى تفسير هذه العيون ولا ندرى أهى عيون الحكمة الإلهية أو عيون الضمير الإنسانى أو عيون أخرى يراها إليوت وحده من دون خلق الله . ولكنها على كل حال تذكرنا بعينى بياتريس محبوبة دانتى اللتين جاء فى « الكوميديا الإلهية » أن لهما ضياء يغشى الأبصار ويؤذى الناظرين . ولا حرج من هذا الفهم لأن إليوت لا يريد أن يقترب من الضياء لئلا يتلفه الضياء ، بل يريد أن يستخفى منه فى جلود الفيران وفى رياش الطيور . كذلك تذكرنا الوردة كثيرة الأوراق بما جاء فى « الكوميديا الإلهية » من أن الملائكة تجتمع فى صورة وردة حول الله فى أعلى طبقة من طبقات الفردوس . ولكن الخطر كل الخطر أن نجزم بشىء نهائى فى هذا السبيل .

ويغض من صوفية إليوت أنه غاضب ويائس وحزين . والصوفية الحقة تتنافى مع كل هذه العواطف الكدرة ؛ لأن الصوفية تقوم على الاندماج فى الكل والاتحاد مع سر الكون وسقوط الغشاء الذى يعوق الحواس من التغلغل فيما وراء الظواهر . وحالة الاشراق هذه تبعث فى النفس الرضا المطلق كما فعلت مع وردزورث وجيتى . وكيف يغضب أو ييأس أو يحزن من يرى وجه الله ؟ و « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » تعبران عن إرادة الموت الكامنة فى المجتمع الأوربى ، تلك الإرادة التى نجدها واضحة قوية فى كتاب شبنجلر « انهيار الغرب » . وإليوت لم يصل قط إلى الصفاء الأبدى ، أو النرفانا بلغة الهنود ، فهو إذاً ليس شاعراً صوفيًّا بل شاعر دينى على طريقة خاصة ، أو شاعر مسيحى كنسى .

وقد انتقل فعلا من المرحلة الأولى من حياته الفنية ، مرحلة الغضب واليأس والحزن ، إلى المرحلة الثانية مرحلة الدعوة لعقيدة إيجابية ، فاعتنق الكاثوليكية على طريقة الإنجليز لا على طريقة روما ، وتزل عن جنسيته الأمريكية وتجنس بالجنسية الإنجليزية ، وأعلن فى الناس أنه ملكى لا يقرّ المبادئ الجمهورية التى تسير عليها الولايات المتحدة ، وجهر بأنه محافظ يحافظ على التراث الإنسانى من التجارب الخطيرة الجديدة . وفى عام ١٩٣٠ طلع على الناس بمجموعة جديدة من القصائد هى « أربعاء أيوب » وحيها مستمد من الروح الكاثوليكية ، ومن بعدها مسرحية منظومة هى « جريمة فى الكاتدرائية » تصور مقتل القديس الإنجليزى توماس بيكيت فى العصور الوسطى .

ثم دخل فى المرحلة الثالثة من حياته الفنية عام ١٩٣٦ ولم يخرج منها إلى اليوم . وتتميز هذه المرحلة بانصراف إليوت عن الشعر الدينى واشتغاله بالشعر الفلسفى كما نعرف من ديوانه الأخير « أربع رباعيات » ، وهو محصول كهولته الأخيرة أو شيخوخته الأولى . وكأنما يئس إليوت من إذاعة جوهر الكاثوليكية فى الناس فاكتفى بمخاطبة جمهور محدود من الأصفياء والمتأملين . وهو الآن شاعر ميتافيزيقى ، شاعر متأمل فيما وراء الطبيعة على نهج فكرى ، يعرف وظيفته ويرضى فيما يلوح بها ؛ لأن مرارته الأولى قد غادرته وإن بقى له حزنه الأول ويأسه الأول وهو فى الرباعيات الأربع ، يحاول كما يقول الناقد ، هاردنج أن يخلق فكرتنا عن الأبدية خلقاً جديداً . يقول إليوت فى الرباعية الأولى واسمها « بيرنت نورتون » :

« لعل الزمن الحاضر والزمن الماضى كلاهما مشتمل فى الزمن المستقبل ، ولعل الزمن المستقبل مشتمل فى الزمن الماضى . وإذا كان الزمن بكليته حاضراً حضوراً أبديًّا فالزمن بكليته ضائع بغير رجعة . وما كان يمكن أن يكون تجريداً له إمكانية دائمة فى عالم الافتراض وحده . وما كان يمكن أن يكون وما كان فعلاً يهدفان إلى نهاية واحدة حاضرة على الدوام . وفى الذاكرة يتجاوب وقع خطانا فى الدهليز الذى لم نطرقه ، الدهليز المفضى إلى الباب الذى لم نفتحه قط ، الباب المفضى إلى حديقة الورد . وهكذا تتجاوب فى ذهنك كلماتى . »

ثم يقول :

« والزمن الماضى والزمن المستقبل لا يتركان للوعى مجالا كبيراً . والوعى لا يكون بالوجود فى الزمن ولكن بالزمن وحده نذكر لحظة الوجد فى حديقة

الورد ، ولحظة الوجد فى الشجرة التى لطمتها الأمطار ، ولحظة الوجد فى الكنيسة التى تخترقها تيارات الهواء حين يتكاثف الدخان . أجل نذكرها مشتبكة بالماضى وبالمستقبل . وبالزمن وحده نقهر الزمن . »

ثم يرشدك إلى طريق الخلاص فيأمرك أن

« إهبط إلى العالم السفلى ، إهبط إلى عالم العزلة الدائمة ، العالم الذى ليس عالماً ولكنه ما ليس بعالم ، حيث الظلام داخلى ، حيث الفقر كامل وكل ملكية قد نزعت ، حيث عالم الحسن قد يبست أليافه وعالم الخيال قد خوى من أحلامه وعالم الروح قد بطلت وظيفته . فهذا العالم ليس بعالم هو الطريق الأوحد . »

وهو فى الرباعية الثالثة واسمها «الصخور الثلاث» يتحدث عن السعادة فيقول :

« ولحظات السعادة .. لست أقصد الإحساس بالانتعاش أو بلوغ الوطر أو تحقق الهوى أو الطمأنينة أو العطف ، بل لا أقصد شعور الرضا الذى يأتينا من أكلة فاخرة ، وإنما أقصد الإشراق المفاجىء ـ لحظات السعادة هذه عرفناها ولكن فاتنا مغزاها . وأردنا أن نختبر المغزى فاختبرنا لحظات السعادة من جديد ، ولكنها عادت إلينا فى قالب آخر ليس فيه مغزى يدخل تحت مدلول السعادة . »

فاليوت كما ترى يتقدم فى شعره من الدين إلى الميتافيزيقا ، وهو يحدثنا عن لحظة الوجد فى حديقة الورد وفى الشجرة المبتلة وفى الكنيسة التى تتناوح فيها الرياح ، وهو يحدثنا عن لحظة الإشراق وما يجلبه له من سعادة ، ولكنه يعترف دون وعى منه بأن الصوفى فيه قد أفلس أمام المفكر ؛ لأن لحظات الوجد عنده لا تطول من ناحية ويستعصى مغزاها على فهمه من ناحية أخرى . فهى كالرؤى التى كان يراها فى مرحلة تديّنه قصيرة وباهتة . ولست أزعم أن الصوفى يفهم ما يملأ نفسه من إشراق ساعة الاتصال بالمجهول ، ولكن إليوت يريد أن « يفهم » مغزى الإشراق ولا يكتفى باستيعابه والتعبير الخام عنه كما يجب أن يفعل الصوفى الأصيل . وهو فى لحظة انبلاج النور هذه لا يزال واعياً يتذكر مدلول السعادة الأرضية كما نعرفها نحن الفانون ويضاهيها بالسعادة الإلهية التى تغمره فيدرك أن بينهما اختلافا . وهذه عملية عقلية تثبت أنه صوفى مزيّف ، أو على الأقل أنه يجتهد التصوف اجتهاداً ولا يكتفى فى تأملاته الميتافيزيقية بنزهة عقله وراء تخوم الأبد . ولعل إعداده الدينى المسيحى الكاثوليكى الأول هو سر إصراره على استخدام حواسه فى عملية الاتصال بالمجهول على طريقة المتصوفة .

٣

مهما يكن من شيء فإن إليوت يمثل اتجاها عظيم الشأن فى القرن العشرين . وأصدق وصف له ولأمثاله من أدباء الكارثة قول الشاعر العظيم سپندر فيهم إنهم عوامل هدم فى المجتمع الراهن ، وإليوت بينهم سيد الهادمين . فهو روح قديم هائم عابر القرون ، وهو عبقرى ولد بعد جيله بأجيال ، فزمانه الطبيعى هو العصور الوسطى وبيئته الطبيعية هى حضارة الإقطاع ، وهو نهاية مدنية بائدة أو نرجو أن تبيد .

عجز إليوت عن فهم الضرورات المادية والروحية فى التطور التاريخى المشهود الذى أصاب المجتمع منذ الانقلاب الصناعى ، لأنه من فلول الأرستقراطية اللاصقة بالأرض ، فنقم على الآلة وعلى أصحاب الآلة وعلى حضارة الآلة ، وخيّل إليه كما خيل إلى صاحبيه عزرا پاوند ، وت . إ . هيوم أن الإنسانية قد انتحرت عام ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية البورچوازية التى وضعت حدّا لنظام الأشراف ومهّدت للنظام الرأسمالى . ولعل نشأته الأمريكية قد ضاعفت مقته للبورچوازية ففى أمريكا تطوّرت الحياة الآلية تطوراً سريعاً خاطفاً مزعجاً عصف بأكثر القيم الإنسانية الموروثة . وفى أمريكا شاهد إليوت البلوتوقراطية فى أشنع صورها ، أى حكم كبار الممّولين ، تلقب نفسها زوراً بالديمقراطية ، وتمّوه على الشعب باسم الحرية وتكافؤ الفرص ، فكان طبيعيًّا أن يغضب ويحزن وييأس .

ولقد وجد فريق من الغربيين فى الثورة الروسية العمالية ، ثورة ١٩١٧ مخرجا من المحنة التى أنزلتها الرأسمالية ببنى الإنسان . ولكن إليوت لم يجد فى الحضارة العمالية شفاء للبشرية من أوجاعها الروحية ، بل وجد أن إحلال الشيوعية محل الفردية كالاستجارة من الرمضاء بالنار . ففلسفة إليوت إذاً ثورة على ثورتين لا على ثورة واحدة ، ومن هنا كانت رجعيته الأكيدة . ولو أنه كان من أهل هذا الجيل لتفاءل رغم ما يراه من صور الدمار بدل أن يحزن ، ويظنّ بالإنسانية خيرا رغم وحشيتها وأنانيتها وغفلتها بدل أن يضمر لها سوء الظن ويعلن على الناس عقمها الأبدى ولا آمن بأن اليوم أجمل من الأمس وأن الغد أجمل من اليوم . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأنه مفكر طبقى يندب طبقته التى اختفت وتختفى مع زبد القرون . قال فى ص ٣٦٣ من كتابه « مقالات مختارة » :

« إن العالم يقوم الآن بتجربة ألا وهى تكوين عقلية متمدنة لا تقوم على الثقافة المسيحية ، ولسوف تخفق هذه التجربة . ولكننا لن نرى إخفاقها إلا بعد أجيال وأجيال . فلنصبر طويلا ولنحتفظ بالإيمان طوال هذه العصور المظلمة التى تنتظرنا لنبنى الحضارة ونجددها وننقذ العالم من الانتحار . »

فهو ينظر إلى الكنيسة نظر الماركسى إلى الدولة الشيوعية أى يعدّها غاية الحضارة ودعامتها الأولى . وهو يخلط بين قيم الدين وقيم الدنيا ، حتى ليقحم بالكنيسة فى أخص شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية كضبط النسل مثلا ، فيقول فى ص ٣٥١ من « مقالات مختارة » إن « فى هذه المسألة قبل سواها لا مفر للإنسان من أن يستهدى المشتغلين بالشؤون الروحية ، فنداء الضمير والحكم الشخصى لا يعول عليهما . كذلك ينبغى أن تقدم مشورة القساوسة على مشورة الأطباء بصفة قاطعة لأن مشورة الأطباء مضطربة . » وهو يحض على اتباع تعاليم الكنيسة فى تربية النشء فيقول فى ص ٣٤٩ إن « التأمل والدراسة وتعذيب النفس والتضحية هى المبادئ التى ينبغى أن يراض عليها الشباب » . ولقد يبدو هذا الرأى فكرة تربوية مألوفة ولكنه عند إليوت مرادف لفكرة الرهبانية . حتى السياسة لم تسلم من لفتاته ، ولقد تقرأ بعض نظرياته الاجتماعية فى ص ٢٠ من كتابه « البحث عن الآلهة الغريبة » فتخال أنك تقرأ صفحات من كتاب هتلر « كفاحى » :

« ينبغى أن يكون الشعب ذا صبغة واحدة ، فحيثما التقت ثقافتان فى صعيد واحد فالمنتظر أن تتناصرا أو تفسد إحداها الأخرى . وأهم مافى الموضوع أن يكون التراث الدينى فى الشعب متحدا . والدواعى العنصرية والدينية تجعل كثرة المفكرين الأحرار من اليهود أمراً غير مرغوب فيه . كذلك لابد أن يكون هناك توازن واضح بين نمو المدينة ونمو الريف ، بين التطور الصناعى والتطور الزراعى ، ثم إن الإسراف فى التسامح أمر معيب » .

وهذا الاتجاه الفاشى فى إليوت منطق مع أركان فلسفته الأخرى ومع رسالته الفنية . وإذا لم نجد بأسا من أن نقول إن الفاشية إجمالا هى الإقطاعية الصناعية اتضحت أصول هذا الاتجاه وأمثاله فى الشاعر الرجعى الناقد الرجعى توماس ستيرنز إليوت .

لويس عوض